لماذا لا أثق -

بأقوال النحاة ولا اللغويين

للأب أنستاس مارى الكرملى

١ — تصدير

إنى لا أثق « دائماً » بكل ما ينطق به النحاة ولا اللغويون ولو كانوا أدلاء أجلاء بل أعرضه على محك النقد والتحقيق ، وتدقيق النظر فيه ، فإن أظهر المحك صدق إبرازهم ، وافقت عليه وقيدته عندى بكل فخر وإجلال ، واعتبار وإكبار ، وإلا نبذته نبذ النواة ، أو نبذ آراء المشعوذين النحاة الهواة . وذلك لأن الإنسان، محل النسيان ، ولأن الجواد قد يكبو ، والسيف قد ينبو . وما العصمة والكمال ، إلا لرب الجلال

ولهذا ترانى لا أثق إلا بما ينقله السلف إلينا من أقوال المحققين الأقدمين ، كما قلت مراراً لا تحصى . وأمثلة ما قد أخطأوا القول فيه أكثر من أن يعد ، ولا تسعه مجلة موقوتة ، لأن ما جمعته يقع فى مجلد ضخم « لا تهضمه معدة مجلة » لثقله عليها ، ولثقله أيضاً على معد قرائها الكرام الأجلاء

وأنا أذكر هنا بعض الشىء ، بمنزلة ما أذهب إليه من كلامى الذى عنوت به مقالى هذا

٢ — ورود فعلى جمعا لأكثر من لفظين

أنقل هنا ما جاء فى تاج العروس فى مادة (ظ ر ب) حرفاً بحرف ، قال : « نقل شيخنا عن أبى حيان : ليس لنا جمع على فعلى ، بالكسر ، غير هذين اللفظين [ظربى وحجلى] ويقال : أن أبا الطيب المتنبى لقى أبا على الفارسى ، فقال له : كم لنا من الجموع على فعلى ، بالكسر ؟ - فقال أبو الطيب بديهة : حجلى وظربى ، لا ثالث لهما

فما زال أبو على يبحث : هل يستدرك عليه ثالثة وكان رمداً فلم يمكن له ذلك ، حتى قيل إنه مع كثرة المراجعة ، ورمد عينيه ، آل به الأمر إلى ضعف بصره . ويقال إنه عمى بسبب ذلك ، والله أعلم

ثم قال : وهى من الغرائب الدالة على معرفة أبى الطيب وسعة اطلاعه . انتهى كلام الشارح على الحجلى : اسم للجمع »

قلنا : الجمع لفظة تشمل الجمع بصيغه المختلفة ، واسم الجمع وشبه الجمع : والظاهر أن الذين جاؤوا بعد أبى الطيب وأبى على الفارسى لم يجدوا فى كلام العرب جمعاً ، ولا اسم جمع ، ولا شبه جمع على فعلى ، بكسر الأول . أفهذا صحيح ؟

أن يقدم رسالته فى « مناقب الترك » وإن كان هذا لا ينفى احتمال وجود أسباب أخرى حالت دون تقديمها ؛ مما قد يشير إليه قولُ الجاحظ فى مفتتح رسالته : « هذا كتاب كتبته أيام المعتصم بالله — رضى الله تعالى عنه ونضر وجهه — فلم يصل إليه لأسباب يطول شرحها ، فلذلك لم أعرض للاخبار عنها ... » .

... أخيراً توفى المعتصم عام ٢٢٧هـ وتولى بعده ابنه أبو جعفر هرون الواثق بالله ؛ وكانت النفوس وقتئذ ما تزال ثائرة ، ومظاهر الأحوال لم تتغير إلى الحد الذى يبيح للجاحظ أن يقدم على ما كان عنه من قبل محجما .

وإذا افترضنا زوال الأسباب القديمة ، فإن الفرصة لم تكن تعرض ، والمناسبة التى يلائمها إظهار رسالة فى مدح الترك وإبراز مفاخرهم لم تكن تمنّ ؛ والجاحظ يعلم أن لكل مقام مقالاً ، وأن الكلمة من شعر أو نثر تفقد أكثر قيمتها إذا هي برزت فى غير موضعها أو ظهرت دون مناسبتها . وتلك حقيقة يتحراها أكثر الأدباء قديماً وحديثاً فى عرض إنتاجهم ؛ وإنها لأدل على صدق الأدب وصحة الاستلهام ، وأدعى إلى قوة التأثر وبلاغة التأثير معاً . وما (أدب المناسبات) إلا صورة صادقة من الأدب الحى يعجز عنه جماعة الفصحين ممن لا تواتيهم قرائحهم فى كل حين ، فينبزون أصحابه بلقب النسّاخ أو النظامين ؛ وفرقُ ما بين الطائفتين تيقظُ بديهة أو غفوتها ، واستجابة خاطر أو استعصاؤه ...

(للمقال بقية)

محمود عزت عرفة

فقال فخر اللغويين المتأخرين ، وإمام أئمتهم ، الشيخ محمد محمود الشنقيطي ، في حاشية له على المخصص ٨ : ١٥٦ ما هذا نصه بحروفه :

« قلت : قول علي بن سيدة : الحجلى الخ خلاف الأصح ؛ وقلده فيه من قلده . والأصح أن فِعلى بالكسر من أبنية الجمع النادرة ، ولم يسمع منها إلا لفظتان ، وهما : الحِجلى هذه والظربى جمع الظربان . ونظمهما شيخ شيوخ مشايخنا المختار ابن بون في احمراره ذيل الألفية ، حيث قال رحمه الله تعالى :

فِعلى بما أجمع ظربان حجل ، وليس باسم الجمع في القول الأجل

ومن الدليل على ذلك الحكاية المحفوظة المروية عن سيف الدولة .

روى عنه أنه سأل ليلة أصحاب سمره ، وفيها المتنبي فقال لهم : كم من جمع لناً على فعلى ؟ — فأجابه المتنبي في الحال بقوله : حجلي وظربى ، وكان في مجلسه ذلك العلماء والأدباء والشعراء ، وفيهم أبو علي الفارسيّ ، فلم يزد واحد منهم لفظة تثلثهما .

« وبعد انتهاء المسامرة ، ذهب أبو علي إلى بيته ، وسهر يطالع كتب اللغة والعربية ، فلم يجد لها ثالثة ، فبسبب ذلك كان يتعجب من حفظ المتنبي لغة العرب ، وتبحُّره فيها

« قلت : وجد الدماميني بعد قرون لفظة ثالثة وهي : مِعزى جمع معز ، ونظمها أستاذنا وشيخنا عبد الوهاب جَدُّود بقوله :

وثالث اللفظين لفظ يَمْعَزَى ، إلى الدماميني وهو مِعْزَى

انتهى وكتبه راويه حافظهُ محقّقه محمد محمود لطف الله تعالى به . آمين . » انتهى

أقول وأنا صاحب هذا المقال : ويزاد على الثلاثة المتقدم ذكرها ستة أخر وهي :

الأول : العِرقى جمع عرقاة . قال في المخصص (١٥ : ١٨٧) : العِرْق جمع عرقاة . من قولهم : إستأصل الله عرقاتهم . عن الفارسيّ ، ولم يحكها غيره . » ا هـ . قلنا : وكفى بالفارسي حجة بتاً ؛ مع أننا رأينا أنه طالع كتب اللغة فلم يعثر على مثال ثالث على فِعلى ، فيكون وجده بعد بحثه الأول عنه .

الثاني : قال الجوهري : العِمقى ، بكسر العين ، شجر لحجاز وتهامة . كذا يرى في النسخة المطبوعة في بولاق . وفي أربع نسخ خطية قديمة عندنا ، وإحداها منقولة عن نسخة المؤلف نفسه . وكلها تذكر هذه الكلمات : العمق بالكسر شجر بالحجاز وتهامة ، ولم نقل واحدة : « شجرة » فالعِمقى إذا شبه جمع ، أو جمع على تعبير النحاة واللغويين ، فيكون واحدتها عمقاة .

الثالث : قال الفارسي : العِفرى جمع عفراة . وأنشد عن ابن دريد : إذا صعد الدهر إلى عفراته

(عن المخصّص ١٥ : ١٨٧)

الرابع : جاء في لسان العرب في مادة (صحن) : « الأزهري الصحِيناة ، بوزن فِعلاة ، إذا ذهبت عنها الهاء دخلها التنوين ، وتجمع على الصِّحْنا (هكذا كتبت بألف قائمة) والذي في المخصص : الصِّحْنى ، بألف قاعدة وبطرح الهاء

الخامس : ذِفرى وهي جمع ذِفراة ، وهي العظم الثاني خلف الأذن (المخصص ١٥ : ١٨٩)

السادس : الشِّيزى . قالوا : شجر تعمل منه الجفان ، ولم يذكروا لها واحداً . ومنهم من قال : واحدها الشيز . والعلم عند الله .

٣ — الخلاصة :

جاءت تسعة ألفاظ على (فِعلى) المكسورة الأول ، وهي : الحِجلى ، والظربى ، والمعزى ، والعرقي ، والعِمقي ، والعفرى ، والصحنى ، والذفرى ، والشيزى . ولعل هناك غيرها ونحن نجهلها . فنطلب من القراء أن يوافونا بها ، ولهم منا الشكر سلفاً .

القسم الثاني — فُعلَى

قال الشارح في رسم (أرب) : « الأُرَبى » بفتح الراء والموحدة ، مع ضم أوله ، مقصوراً ، هكذا ضبطهُ ابن مالك ، وأبو حيّان ، وابن هشام : الداهية . أنشد الجوهري لابن أحمر :

فلما غشى ليلى وأيقنتُ أنها ، هي الأُرْبى جازت بأم حبوى

قلت : وهي كشُعَبَى ، وأُرَمَى ، ولا رابع لها . » انتهى .

قلنا : شُعَبَى : إسم موضع .

ونزيد على ذلك أن لهن أخوات أخر منها :

وهى الرابعة : الأُرَنَى ، بهمزة فراء ، فنون فألف . وهو حبّ بقل يطرح فى اللبن ، فيثخنه ويجبنه . ويقال للرجل : إنت كالأربى .

والخامسة : وهى أُدَمى ، بهمزة ودال مهملة فلام فألف وهو موضع . وقيل : الأُدمى ، حجارة فى أرض بنى قُشَيْر .

والسادسة : جُنَبَى وهى اسم موضع ، بجيم فنون ففاء فألف

والسابعة : الجُعَبَى وهى بجيم وعين مهملة فباء موحدة تحتية فألف ، وجمعها الجُعَب والجُعَبَات ، وهى عظام النمل اللائى يعضضن ، ولها أفواه واسعة .

والثامنة : تُوَمى ، بتاء مثناة فواو فميم فألف . قال المجد فى قاموسه : وتوما كأربى . موضع فى الجزيرة . وذكره ياقوت بصورة توَما بالتحريك : موضع بالجزيرة . عن نصر . اهـ فيجوز لك أن تختار إحدى اللغتين ، لأن كلا من المجد وياقوت حجة ثبت .

والتاسعة : بُشَرَى ، وهى على ما فى ياقوت كبشرى لكنى سمعتها من شيخى الجليل السيد محمود شكرى الألوسى كأربى ، وترى مضبوطة فى القاموس .

والعاشرة ، تلّ بُوَنَى بباء بمضمومة فواو مفتوحة فنون مفتوحة فألف . وسمعتها من شيخى الألوسى كأربى . أما الشارح فقد قال : تل بونى كشورى قرية بالكوفة . هكذا فى النسخ ، والصواب فيه بُوَنَّا ، بضم الباء وفتح الواو وتشديد النون ، كما ضبطه نصر رحمه الله تعالى ، وهى ناحية بسواد العراق قريب الكوفة » اهـ . وفى ياقوت : « تل بَوَنَّا بفتحتين وتشديد النون ، من قرى الكوفة . قال مالك بن أسماء الفزارى :

حبذا ليلتى بتـــل بَوَنَّا حيث تُسقى شرابنا وتُغنَّى
ومررنا بنسوة عطرات وسماع وقَرقف فنزلنا
حيثما دارت الزجاجة درنا يحسب الجاهلون أنّا جُنِنّا

حدثنا ابن كناسة أن عمر لما لقى مالكاً ، استنشده شيئاً من شعره ، فأنشده . فقال له عمر : ما أحسن شعرك لولا أسمع قرى تذكرها فيه[1] فقال : مثل ماذا ؟ . قال : مثل قولك :

أشهدتنى أم كنت غائبة فى ليلتى بحديثه القسبِ

ومثل قولك :

حبذا ليلتى بتـــل بَوَنَّا حيث تُسقى شرابنا وتُغنَّى

فقال مالك : هى قرى البلد الذى أنا فيه ، وهى مثل ما تذكره أنت فى شعرك من أرض بلادك . قال : مثل ماذا ؟ فقال : مثل قولك هذا :

ما على الرَّبْع بالبُلَيَّيْن لو بَيَّن رجع السلام أو لو أجابا

فأمسك ابن أبى ربيعة » اهـ

فهذه أربع روايات مختلفة : رواية الألوسى ، وهى رواية صحيحة . والألوسي من أبناء هذه الديار ، وصاحب الدار أدرى بما فيها . ورواية القاموس ولابد من أنه سمعها من أحد شيوخه ، أو أصابها فى كتب من تقدمه ، أو ربما كانت الرواية الشائعة فى عصره . ورواية نصر وهو حجة فى ذكر أسماء المدن والبلدان والمواضع . ورواية ياقوت ، وياقوت معروف بصدق النقل لأسماء المواضع والأمكنة

أما نحن فلا نكذب أحداً من هؤلاء النقلة ، لأنهم كلهم رواة ثقات ، وحجج أثبات . فالأخذ برواياتهم من أحسن الوسائل للاحتفاظ بما نقلوه إلينا ، والاعتماد عليهم

الخلاصة

لنا من الألفاظ الواردة على فُعَلَى ، بضم ففتحتين ، فألف مقصورة عشرة ألفاظ على أقل تقدير — لا ثلاثة كما قالوا — أو كما قال صاحب تاج العروس ، ولعل هناك ضعف هذا العدد ونحن نجهله ، ويذكره لنا غيرنا من المتتبعين لدقائق العربية

القسم الثالث — تفاعيل

قال السيد مرتضى عبادة (ب ش ر) : « التباشير وليس له نظير إلا ثلاثة أحرف . تعاشيب الأرض ، وتعاجيب الدهر ، وتفاطير النبات والشباب »

قلنا : وهناك خامس وهو التناشير بتاء مثناة فوقية ، فنون ، فألف ، فشين مثلثة : فياء مثناة تحتية ، فراء وهى كتابة لغلمان الكتاب بلا واحد (القاموس)

وسادس وهو النفاطير ، بنون موحدة ، فوقية ، ففاء فألف فطاء فياء مثناة تحتية ، فراء

(١) وفى الأصل المطبوع : لو لا أسمع قرى التى تذكرها فيه ، وهو خطأ